الجغرافيا والأدب
تقاطع المعارف البشرية (*)

أ.د مازن الوعر(*)

مظهر سطح الأرض ...منه خرجنا وإليه نعود

أبقوا على السطح فإليه تأتي كائنات الأعماق لكي تتنفس

هنري لوفيفر (اللسان والمجتمع)

مدخل

يعود الوصف الإيحائي المثير للأماكن الجغرافية والذي يقدمه الشعراء والروائيون بفائدة عظيمة على المهتمين بالأدب والجغرافيا على حد سواء. فهذا الوصف الذي يربط الإحساس بالمكان يمكن أن يفعل فعله في القارئ. فالجغرافي المثقف (Culturated) يدلل على وعيه ومعرفته بالتأثير الإنساني في الأماكن الجغرافية من خلال تحديد

* ـ أستاذ اللسانيات الحديثة بقسم الدراسات العليا، كلية اللغة العربية، جامعة أم القرى، مكة المكرمة.

* - William E.Mallory and paul Simpson- Hously (1987-pp209)Geography and Literature: Ameeting of Disciplines?Suracuse University press. New York.

تشكل هذه الدراسة النقدية للتفكير الجغرافي عند طبقة أهل الأدب فصلا من كتاب يقوم بإعداده صاحب هذه السطور وهو بعنوان: « **التفكير اللغوي عند الجغرافيين العرب في ضوء اللسانيات الجغرافية المعاصرة**».

هذه الصفات كصيغ حقلية ـ ميدانية، وكأشكال مستقرة وكشبكة من الأعمال الاتصالية.

وهذا يدل على أن الأماكن الجغرافية أكبر بكثير من كونها عناصر ومكونات فيزيائية على أرض الواقع... إنها تذهب أعمق من ذلك... إلى درجة لا يمكن بسهولة أن نقيسها. إنها تمتزج امتزاجًا نسيجيًا بالإنسان الذي خرج منها وإليها يعود. ويمكن لهذه الأماكن الجغرافية أن تكون مرتبطة بالسلوكات الحياتية والقيم الفردية والجماعية التي لايستطيع التقاطها وتصويرها على شاشة اللغة إلاّ الشعراء والروائيون الذين على حد تعبير سولتر (C. Salter) ووليام(L. William):

«يهتمون بكشف طبيعة التجربة الإنسانية أكثر مما يهتمون بشرح السلوك الإنساني والتنبؤ به... فهم بهذا يقدمون وصفًا إبداعيًا خلاقًا لجغرافية المكان وتضاريسه أكثر من معالجتهم لهذه الجغرافية معالجة موضوعية...علمية» [1]

لقد أكّد الباحث جان فريزر هارت (J. Fraser Hart):

«أن الصيغة الفنية العليا والمثلى التي يسعى الجغرافي إلى تحقيقها هي الجغرافيا الإقليمية الجيدة، ولكي يكون ذلك كذلك، فإن الوصف الإيحائي المثير سيسهّل الوصول إلى ذلك الهدف من خلال أعمال

1 - Salter, Christopher, and William,Lloyd (1976). Landscape and Literature. Association of American Geographers. Washington, D.C.

الشعراء والروائيين الذين يقدرون النظرة الأدبية العميقة لجوهر الأماكن أكثر من النظرة الجغرافية في صيغتها النثرية المملة» [2].

والحقيقة أن أكثر الأعمال الجغرافية الأدبية إنما هي متجذرة في الواقع، وأن هذا الواقع المتمثل في مظهر سطح الأرض كان ومايزال الشغل الشاغل للباحثين الجغرافيين الذين يمكن لمعرفتهم أن تساعد الجغرافيا الأدبية في تصويرها للواقع تصويرًا رمزيًا.

1ـ بحوث كتاب الجغرافيا والأدب: تقاطع المعرفة البشرية

إن البحوث المجمَّعة في كتاب:

(Geography and Leterature: A Meeting of the Disciplines)

لمحرريه وليام ملوري (W. Mallory) وبول سيمبسون ـ هاوسلي (P.S-Hously) تُعدُّ جهدًا متميزًا يمثل تقاطع المعارف البشرية والتقائها. وقد أسهم في هذا الجهد الطيب الجغرافيون ونقاد الأدب ثم الكتَّاب

---

2 - Hart, John Fraser (1982) «The Highest form of Geographer's Art» Annals of the Association of American Geographers, I. Washington, D.C.

المبدعون الذي أضفوا الملامح الأدبية والفنية والجمالية على المواقع الجغرافية [3].

لقد قدّم الباحثون هنا كل هذه المعارف البشرية بطرائق ومناهج مختلفة عالجت الواقع الجغرافي بتضاريسه ونتوءاته المختلفة.

واللافت للنظر في هذا الكتاب أن هناك تشابهات عديدة قائمة على علاقة البحث الواحد يبحث آخر والمؤلف بمؤلف آخر والمنهج المتَّبع بمنهج آخر. فكل هذه العلاقات المتشابهة تلتقي على أرضية عامة لتشكل المعارف البشرية المتقاطعة.

---

3 ـ يشبه هذا الإتجاه الغربي ماذهب إليه الشعراء واللغويون والمؤرخون والجغرافيون العرب في معالجتهم للمواقع الجغرافية معالجة تجعل بينهم نقاط التقاء وتقاطع وإن اختلفوا في المنهج والهدف، وقد سمى ياقوت الحموي في معجمه «البلدان» المشتغلين بالاتجاهات الجغرافية؛ الأدبية والتاريخية واللغوية «طبقة أهل الأدب». ويمثل الشعر العربي القديم ذروة الاستثمار المفيد لمظهر سطح الأرض (Landscape) الذي أصبح جزءًا لا يتجزأ من نفسية الشاعر العربي القديم الذي لوّن شعره بأطياف جغرافية عديدة إلى درجة جعل من الجغرافيا إنسانًا ينطق الشعر.

لمزيد من الاطلاع حول التفكير الجغرافي عند طبقة أهل الأدب يراجع:

أ ـ نصار، د حسين (1985) معاجم على الموضوعات «كتب المواضيع» (التراث الجغرافي اللغوي عندالعرب ص 75 ـ113) دراسات في التراث العربي: سلسلة تصدرها وزارة الإعلام في الكويت. مطبعة حكومة الكويت. الكويت.

ب ـ أن بُلَيْهد، محمد بن عبد اللّه. صحيح الأخبار عما في بلاد العرب من الآثار. الطبعة الثانية . 1972م، السعودية.

ج ـ ابن منقذ، أسامة (488 ـ 584 هـ). المنازل والديار. تحقيق مصطفى حجازي. المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية ـ لجنة إحياء التراث الإسلامي. القاهرة، 1968 م.

د ـ القيسي، د. نوري حمودي (1984م) الطبيعة في الشعر الجاهلي. عالم الكتب ـ مكتبة النهضة العربية بيروت.

وأخيرًا يأمل القارئ لهذه البحوث المجمَّعة أن تسدَّ الفجوة القائمة بين الوصف الجغرافي الحقيقي والوصف الأدبي الخيالي المحلقّ، وبذلك نستطيع أن نقدّم للعالم، بشكله الجغرافي والأدبي، صيغة أكثر وحدة وانسجامًا.

والواقع أن قرّاء الجغرافيا والأدب سيجدون في هذه البحوث فوائد عظيمة ولاسيما الذين يتوقون لمعرفة الجغرافيا بكل فروعها الإنسانية والإجتماعية والثقافية والتاريخية. إن القارىء لهذه البحوث سيكون عارفًا بالعوامل البيئية (الخارجية) للتكوين الجغرافي الذي يثير ويحفّز النظرة الثاقبة للقيمة الإنسانية والفنية والجمالية للمكان.

وينطبق الشيء نفسه على قارئ الأدب الذي يمكنه أن يحصل على معرفة الأسس العملية لمعالجة الجغرافي للمكان المدروس والمقيّم علميًا. وبكلمة أخرى، إن عمل الجغرافي هنا دعوة مستمرة للواقع الفيزيائي الذي يعمل على إثارة الخيال المبدع عند الأديب، ذلك أن الشعراء والروائيين يستعملون الأماكن الجغرافية من أجل توصيل أنواع مختلفة من الأفكار بطريقة فنية وجمالية تجعل من الكون الصامت عالمًا ناطقًا ومتحركًا يمتزج فيه الحي بالجامد من أجل تشكيل وحدة فاعلة ومنفعلة في مسيرة التكوين الحضاري ذي الأبعاد الإنسانية.

انطلاقًا من هذه النظرة فإن الكتاب، ببحوثه المختلفة، محاولة لتنويع المصادر التي نعرف أطرها ومضامينها على نحو عميق. وهكذا فقد جمع الكتاب بحوثًا عدة لمؤلفين ينتمون إلى مختلف بقاع العالم من أجل أن يثيروا معرفة المكان المدروس والمقيَّم في الأعمال الأدبية.

2 ـ أقسام الكتاب

قُسِّم الكتاب إلى خمسة أقسام تعتمد على مناهج مختلفة لمعالجة الواقع الجغرافي في الأدب. هذه الأقسام فيها شيء من التداخل من حيث المحاور، والموضوعات، والمناهج التي يمكن أن تتكرر بين قسم وآخر.

ـ القسم الأول: الاتجاه المنطقي للدراسات الجغرافية الأدبية

إن هذا القسم الذي بحثه جيم وآين ميللر (J. Wayne Miller) يسجل الحالة الراهنة للجغرافيا والأدب. فهو يقدم الأسباب المنطقية من أجل دراسات جغرافية إقليمية أدبية تتناسب مع النظرة الكونية. فالباحث يميل هنا إلى المفهوم الذي يذهب إلى أن الدراسات الجغرافية ليست مجرد بقايا لحفريات قديمة لقولبة العالم ووضعه معايير محددة، بل على العكس من ذلك، إن تلك الدراسات الجغرافية تعدّ، وعلى نحو حيوي، مداخل إلى أنظمة معرفية عديدة، وجسرًا صالحًا للعبور إلى التراث الإنساني العظيم.

إن الإتجاه المنطقي الذي يقترحه ميللر يتطلب التأكيد على الدراسة الجغرافية كطريقة للتغلب على تجزئة التعليم من أجل تنمية الإدراك للحياة اليومية العادية، ومن أجل مساعدة الطلبة لكي يروا ظروف حياتهم كأمثلة تجسّد أفكارهم العامة.

ـ القسم الثاني: الاتجاه الواقعي لمظهر سطح الأرض

يتألف هذا القسم من بحوث واقعية لدراسة مظهر سطح الأرض في الأدب. يوضح الباحث كين ميتشال(K. Mitchell)، من منظور واسع، المحور المركزي الذي تتشعب منه الآداب الكندية، والإنكليزية، والأمريكية، بسبب الإختلافات البيئية بين هذه الآداب.

فهو ينفي أن عامل الانعزال والفصل هو الذي صاغ الأدب الإنكليزي وأن اكتشاف «جنة عدن المهجورة» (يقصد بها العالم الجديد لأمريكا) كان له التأثير الأول في الأدب الأمريكي، وأن معرفة الشمال المتميز بأجوائه وظروفه الصعبة هي التي سيطرت على الأدب الكندي وأثرت فيه.

وبالمقارنة الدقيقة لهذا التحليل حول الظروف المحلية للآداب، بتحليل بيتر برستون (P.Preston) نرى أن هذا الكاتب يثّمن ويقيّم صورة آرنولد بنيت (A. Bennett) لفن صناعة الفخار في خمس مدن صغيرة في الوسط الغربي لإنكلترا والتي تشمل ـ مجتمعة ـ منطقة تسمى بـ (Stoke - on - Trent).

إن روايات آرنولد بنيت تقدم تفسيرًا إيجابيًا لمظهر سطح الأرض الصناعي. فمجموعته الروائية لا تفهم على أنها جميلة داخليًا (العملية الفنية) وإنما خارجيًا (توظيف المكان) أيضًا، ذلك لأنه يرسم دلالاتها المعجمية والمجازية والإيحائية بمهارة فنان وأديب حاذق يجعلها مناسبة للقارىء.

أما الباحث سيزر كافيديس (C.Caviedes) فقد درس أهمية المكان والأسطورة والحلم كعناصر حيوية في الرواية المتميزة لـ مارسا آرجيوداس (M.Arguedas) والتي هي بعنوان «الثعلب (الماكر) من الأعلى والثعلب (الماكر) من الأسفل

(The fox from above and the fox below).

يقدم الباحث هنا كشفًا جيدًا لتحليل آرجيوداس لمجتمع البيرو. وبما أن الباحث كافيديس مختص بعلم الجغرافيا (مظهر سطح الأرض) فإنه يركّز على أوجه الرواية التي تعكس الحساسية والحدس الفطري الذي استعملته الروائية آرجيوداس لصياغة الواقع الجغرافي الواضح لمنطقتها. وبهذا نرى الباحث كافيديس يوسّع، من خلال دراسته لرواية آرجيوداس، مفهوم البعد المكاني والفضائي للجغرافيا ليشمل منطقة لم يلتفت إليها (حتى وقت قريب) الباحثون الغربيون إلاّ نادرًا.

ـ القسم الثالث: الاتجاه الجغرافي الجديد: جغرافية المصير

تعبر البحوث في هذا القسم أيضًا عن التفسيرات الواقعية للمواقع الجغرافية، ولكن من وجهة نظر مصيرية، أي التفسير الواقعي للأمكنة الجغرافية ذات العلاقة المصيرية بالإنسان.

يظهر هذا الإتجاه الجغرافي الجديد بوضوح في بحث سوزان روسوسكي (S. Rosowski)، وعلى استحياء وخفاء في بحث جون جريفن (J. Griffin)، وكموضوع فرعي في بحث آلس بول (A.paul).

فالباحثة سوزان روسوسكي تكشف المعرفة المكانية المصيرية عند الروائية ويلا كاثر (W. Cather) والملخصة في قولها: « إن الجغرافيا شيء مصيري ومميت في بعض الأحايين».

ولا عجب في ذلك، فقد بدأت الروائية ويلا كاثر بالكتابة حول جغرافية نبراسكا كقدر ومصير لا مناص منه هذا المصير يبقى غريبًا عن «مملكة الفن» التي حاولت الدخول إليها. وفي النهاية نرى الروائية كاثر تزوّج الأدب إلى الجغرافيا وتزفّهما فنيًا لتضفي درامية خاصة على المضمون المكاني ضمن ما يسمح المجتمع الإنساني من التحرك والعمل.

وفي عملها الروائي «ياللروّاد!» (O Pioneers!) نراها تصيب الهدف عندما جعلت من هذه الرواية احتفالية تدل على المقدرة الفنية التي تضفي على المنطقة الجغرافية شيئًا من الجمال التشكيلي رغم قدرها المحتوم.

أما جون جريفن فإنه يذهب في بحثه إلى أن الجغرافيا تستطيع أن تحدّد المصير الإنساني، وهذا ماعالجه في الروايات الكنتاكية (نسبة إلى ولاية كنتاكي Kentucky الأمريكية) عند الروائية هاريت أرنو (H.Arnow)، وهذه الروايات هي « درب الجبل (Moutian Path) و(مزمار الصياد) (Hunter's Horn)، و «صانع الدمى» (Dollmaker).

لقد وضعت الروائية آرنو هذه الروايات بطريقة درامية مضغوطة تدل على أن الجغرافيا تستطيع أن تحدد مصير المنطقة ومصير شعبها على

حد سواء. لقد صورت الناس هنا، معزولين ومجتمعين، على أنهم منهمكون في فرار زمني جماعي، كثقافة جغرافية تدل على نظام الحياة ونظام القيم التي تمر في عملية تآكل وذوبان على نحو تدريجي (الإيقاع السريع للحياة المعاصرة).

إن ثلاثيتها الروائية الكنتاكية تحاول أن توازي بين **الحقيقة والخيال** في عالم معاصر يتلاشى بشكل كامل وسريع أكثر من التلاشي البطيء للعالم القديم (الإغريق والرومان) (الإيقاع البطيء للحياة القديمة).

وهناك بحث أكثر عمقًا من الناحية الجغرافية المصيرية وهو للباحثة آلس بول(Alec Paul) يدور حول جغرافية روسيا في الأدب. فقد وجدت الكاتبة أن الصفات الجغرافية في قصص الكاتبين الروسيين ليرمونتوف (Letmontov) وتورغينيف (Turgenev) تعمل كعناصر مضادة لتغيير المشهد السياسي. فالأديب ليرمونتوف رأى المشاهد الرائعة للقوقاز على أنها ظروف مصيرية بيئية معينة يُقتلع الإنسان منها إقتلاعًا ويُبعد بحيث لايستطيع أن يكون فاعلاً فيها ولا متفاعلاً معها.

أما الأديب تورغينيف فقد عالج السهول الروسية في إطار من العلاقات المصيرية القائمة بين الإنسان والأرض. فقد كان حساسًا تجاه التغيرات الحاصلة في مظهر سطح الأرض والمرافقة لانحلال النظام الإقطاعي لملكية الأرض. إنها الإيديولوجية التي تقرر مصير الجغرافيا والتاريخ والإنسان.

ـ القسم الرابع: اتجاه دراسة مظهر سطح الأرض المدرك من العامة

ينعكس الشيء نفسه، حول الرؤى المتعلقة بالأماكن الجغرافية في الأدب، في القسم الرابع من الكتاب، والذي يبيّن الدراسة التجريبية المؤسسة على تراث العلوم الاجتماعية.

يوضح الباحث بوكوك (D.Pocock) هنا دور الأدب الخيالي في تجربتنا الفعلية وتوقعنا اللامحدود للمكان. وبكلمة أكثر تحديدًا، إنه يحلل العلاقة القائمة بين الكاتب والمكان والقارئ. فهو يركز على المكان المسمى (Haworth)، وهو موطن للكاتبات الأخوات (Brontes)، حيث يوضح بوسائل استبيانية معينة ردة فعل الحجاج على ضريح القديس الأدبي. إن المكان الرسمي، الصفة المركزية لضريح القديس نفسه، يتوافق مع الصورة الذهنية المستقبلة من المجيبين عن الاستبانة.

إن مقارنة الاستبيانات المختلفة حول مسألة التوقع، والخذلان وأمور أخرى في أذهان المجيبين تقترح أن الأسطورة المكناة، أي التأكيد على الدرامية على حساب المخالفة والضدية، تحمل قيمة بحد ذاتها.

وبكلمة أخرى... إن الجغرافيا المكانية هنا لها قواعدها وخلفياتها في الذهن البشري. إن استدعاءها من المثير الخارجي هو الذي يرهص الإنسان على تأطيرها على نحو فني وجمالي يذهب بها من الحقيقة الفيزيائية للواقع إلى الخيال الأدبي للأسطورة والرمز والتاريخ. وبهذا فإن الجغرافيا المكانية كعلم تصبح رمزًا أدبيًا في عالم الإنسان الأسطوري.

القسم الخامس: اتجاه دراسة الجغرافيا الرمزية والمجازية والسريالية

يضم القسم الخامس أربعة بحوث عن الرمزية والمجاز والسريالية في جغرافية المكان. تكشف الباحثة روسالي فيرمت (R.Vermette)، على سبيل المثال، المدارس الأرثية (نسبة إلى مدارس الملك آرثر الأدبية) لرومانسية القرن العشرين. إن الأدب هنا يقدم وظيفة فريدة للمكان والفضاء الجغرافي في العوالم الحقيقية والخيالية، جامعًا ومنسقا لخصائص طبوغرافية رمزية للأسطورة السلتية (نسبة إلى السلتيين وهم سكان انكلترا الأصليون Celtic people).

لقد بحثت الكاتبة هنا خصائص مظهر سطح الأرض: (التلال، الغابات، الأرض اليباب غير المسكونة...إلخ) وذلك لتحديد طبيعتها الواقعية والحقيقية ومن ثم لتحديد تفسيراتها الرمزية... ويدخل في هذا المجال أماكن أخرى مازالت موجودة في انكلترا.

أما الباحثة جين شامي (J. Shami) فقد درست استعمال الشاعر جان دوني (J. Donne) للمصطلحات الجغرافية استعمالاً مجازيًا من خلال نص شعري لمناطق الرجل في العالم. إن الخرائط، والطرق، والأجواء، والأعمدة، تصبح كلها مجازات في هذه المرحلة الصعبة. هذه الصور المتداخلة التي رسمها الشاعر دوني من خلال هذه المجازات تميز عمله الشعري وتسميه كوحدة قائمة برأسها، وتدل في الوقت نفسه على الجهد المستمر من أجل خلق حس خلقي يلامس التغير السريع للواقع الفيزيائي الجغرافي.

أما البحثان الأخيران فيعدان امتدادًا لاستعمال الشعراء والروائيين لجغرافية المكان من منظور رمزي ومجازي وسريالي.

لقد اختار لورانس جونز (L.Jones) مكانًا جغرافيًا واحدًا وسلط الضوء عليه. إنه بالتحديد (الـ Cliff دون اسم) في الرواية الثالثة للكاتب الروائي توماس هاردي (T .Hardy) وهي بعنوان: «زوجان من العيون الزرقاء» (Apair of blue Eyes). لقد طرح هاردي خمسة أوجه للمكان في هذه الرواية وهي:

الطبوغرافيا ـ البيوغرافيا ـ استعمال المصادر الأدبية ـ الإصطلاح الأدبي والتركيب ـ العلاقة بين الإصطلاح الأدبي والرؤية الخاصة لهاردي.

ويبدو أن الوجه الخامس للمكان معقد إلى حد ما، ذلك لأن معالجة الكاتب لأجواء البيئة تعكس تلمس الثقافة واستقبالها، تلك الثقافة التي ينتمي إليها الكاتب، وتعكس كذلك الوجه الشخصي لمزاجية الاستقبال عند الكاتب.

والواقع يستعمل هاردي في بعض الأحايين المجموعة الجغرافية الطبيعية على نحو فني ومزخرف ورفيع، ويستعمل في أحايين أخرى هذه المجموعة الجغرافية من أجل التأثير الرمزي ليعكس الحالات الشعورية والعاطفية للشخصية، ولكنه في بعض الأحيان، وعلى نحو دال جدًا وفي سياق حديثه عن (الـCliff دون اسم)، يستعمل المجموعة الطبيعية الجغرافية ليعبر بشكل كامل وحيوي عن رؤيته الشخصية هو.

وأخيرًا، ومن منظور المقارنة المختلفة، فإن بحث براين روبنسون (B.Robinson) عن جغرافية التقاطع بين الحداثة والسريالية والجغرافيا لا يعالج شيئًا محددًا بعينه، بل نجده ينغمس بعمق في النقد الأدبي المعاصر. فهو يحاول أن يقدم معنى المكان للكتاب السرياليين والمحدثين. إنه يطرح أسئلة حول استقبال المكان والفضاء وفيما إذا كانت الحركات تأتي على نحو إيحائي عندما نمتحن العلاقة بين الجغرافيا والأدب. فهناك معادلات مريحة تستطيع أن تنقلنا من الإصطلاحي (الجغرافيا كعلم) إلى اللاإصطلاحي (الجغرافيا التي ترغب في استعمال الأدب كمصدر من أجل أن تتحول إلى عالم فني تشكيلي حي). إن منهجه الإنساني يجمع على نحو سريالي مجازات الشكل من منظور الحداثة.

3 ـ اتجاهات جغرافية وأدبية حديثة في تقاطع المعارف البشرية

الواقع، وكما يذكر ملوري وهاوسلي، أن اختيار محاور هذه الأقسام وتجميع بحوث متعددة في أقسام محددة إنما كان اختيارًا وتجميعًا شخصيًا. فهناك محاور أخرى غير هذه التي ذكرت سجلها المحرران في الكتاب، فعلى سبيل المثال، إن التغيرات في معالجة مظهر سطح الأرض جاءت متشابهة في أمريكا (كاثر) وفي إنكلترا (بنيت) وفي روسيا (تورغينيف) وفي جنوب أمريكا (آرجيوداس).

والحقيقة يمكن للباحثين أن يختاروا معايير أخرى ومحاور أخرى من أجل أهداف تنظيمية معينة. وربما لا يكون هناك مبادئ تنظيمية تُفرض على الاطلاق، منذ أن كان كل بحث يقدم رؤيته من منظوره الخاص به وذلك لتوظيف الجغرافيا في الأدب.

واللافت للنظر في هذا الكتاب أن محرريه لم يضمنانه الاتجاهات الأكثر حداثة في معالجة الأدب لمنظور سطح الأرض خاصة وللجغرافيا الأسلوبية التي تجاوزت الجغرافية اللغوية لما للأولى من علاقات اجتماعية وإثنية وأنثروولوجية وثقافية.

أما جغرافية الأنوثة فإن غايتها، من خلال دراسة عدة كتابات أدبية قامت بها نساء تنتمي إلى مختلف الثقافات [4]، معالجة عدم المساواة والانصاف المستند إلى النوع في المجتمعات الانسانية، ثم صياغة مجتمع يقوم على التباين في الخبرات البشرية، ذلك لأن المرأة عضو فاعل في المجتمع ولكنها لا تحصل على حقوقها بشكل كامل على الرغم من أنها تقوم بتغيير مظهر سطح الأرض وتطويره بطرق مختلفة عن الرجل.

وهكذا فإننا نرى أن الأدب الجغرافي النسوي يركز على شخصية المرأة إنطلاقًا من اعتقاد الشعراء والروائيين أن المرأة هي الأفضل في تمثيل المرأة المبحوثة.

---

4 - Norwood, V.and Monk, J(eds):The Desert is No Lady: Southern Landscapes in Women's Writing and Art. Yale University Press, NewHaven, CT, U.S.A (1987).

«وبناء على ذلك فإن طريقة المعالجة الأنثوية للأسئلة التي يطرحها الجغرافي (في الأدب) هي تقنية خاصة بالمرأة. فهي تقوم بإعادة تجزئة معاني القوة وتفتيتها في المجتمع لصنع جغرافيا جديدة» [5] ... يوظفها الأدب لخدمة قضايا المرأة في العالم المعاصر.

ويظهر هذا الاتجاه في رواية « بيت اللهو» (The Housse of Mirth) للروائية الأمريكية إيدث وارتون (E.Wharton) [6]. فقد صورت فيها المرأة الغنية والمخدوعة ولكنها الجميلة جدًا والتي كانت ضحية للمجتمع الذكوري الذي اضطرها لأن تمارس أعمالاً خارجة عن أنوثتها وإنسانيتها الأمر الذي يؤدي بها إلى الموت.

والواقع لقد عكست الروائية وارتون شخصيتها في قصصها ورواياتها والتي كانت من خلالها تريد أن تغير وضع المرأة وبالتالي تستطيع بهذا التغيير أن تقلب صورة المكان الصامت والجامد ذي البعد

---

5 - لمزيد من الاطلاع على جغرافية الأنوثة يفضل الرجوع إلى: الدوبكات، د . قاسم (2004م) جغرافية الأنوثة كأحد الإتجاهات الحديثة في البحث الجغرافي». بحث قُدِّم في: **الندوة الثامنة لأقسام الجغرافيا في المملكة العربية السعودية 3 - 5 آذار / مارس 2004 م** . قسم الجغرافيا أم القرى، مكة المكرمة.

6 - Wharton. Edith (1993). The Housse of Mirth (Twentieth - Century Classic). Penguin, U.S.A.

المتناهي إلى صورة المكان الناطق والحي والديناميّ ذي البعد اللامتناهي. [7]

وأخيرًا فإن الجغرافية الأسلوبية هي اتجاه غربي حديث يكاد يكون في حكم العدم في الدرس الجغرافي الأسلوبي العربي.

يهدف هذا الاتجاه لدراسة التشكيل الأسلوبي، المتشكل طبقًا لمظهر سطح الأرض، في الشعر والرواية وبقية الأجناس الأدبية الأخرى.

ولعل الباحث الوحيد في العالم العربي والذي التفت إلى هذا الاتجاه وطبّقه على الأجناس الأدبية هو الدكتور سعد مصلوح والمتمثل في بحثه القيّم:

«من الجغرافية اللغوية إلى الجغرافية الأسلوبية» [8].

وموضوع الجغرافية الأسلوبية حسب رأيه دراسة التنوع الأسلوبي باعتبار جغرافية المكان (Landscape) وباعتبار أنواع الخطاب القانوني، الديني، العلمي، والرسمي، الأدبي...إلخ. وذلك لكشف التشكيل الأسلوبي على صعيدي العامل المكاني والعامل الجغرافي.

---

7 ـ لقد بدأت الدراسات الروائية العربية تتجه إلى كشف شعرية المكان وجماليته في الرواية العربية حديثًا. وأصبح المكان يوظف توظيفًا فعالاً في الأعمال الروائية الذكورية والنسوية. لمزيد من الاطلاع ينظر: حسين، خالد حسين (2000م) **شعرية المكان في الرواية الجديدة: الخطاب الروائي لإدوار الخراط نموذجًا**. كتاب الرياض ـ العدد (83) ـ الرياض. السعودية.

8 ـ مصلوح، د . سعد (1994 ص 10 ـ 36) «من الجغرافية اللغوية إلى الجغرافية الأسلوبية». **مجلة عالم الفكر**. المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب والفنون والآداب. المجلد (22). العدد (3 و4). الكويت.

وتهدف الجغرافية الأسلوبية إلى دراسة توظيف التنوعات الأسلوبية في تشكيل أسلوبي فني وجمالي في الأجناس الأدبية.

وقد استشهد الباحث على ذلك بنموذجين تصنيفيين اثنين يعالجان محددات المقام والمقال. أول هذين النموذجين كان قد قدمه دافيد كريستال (D.Crystal) وديريك دافي (D.Davy) . أما النموذج الآخر فقد كان قدمه اينكفيست (Enkvist) وسنبسر (Spincer) وجريجوري (Gregory).

ومن الموضوعات التي تعالجها الجغرافية الأسلوبية مقارنة الأساليب وتقابلها في عملين آدبيين ينتميان إلى منطقتين جغرافيتين مختلفتين محليًا أو عالميًا.

إن العمل هنا يقوم على المقارنة بين السياقات المقالية والسياقات المقامية، وعلى النظر في الجهاز النحوي للتمييز بين نوعين من القواعد كلاهما موجود في اللغة، الأول هو قواعد الوجوب (اللغة العادية) والثاني هو قواعد الجواز (اللغة الأسلوبية).

إن الهدف من المقارنات الأسلوبية معرفة البنية التشكيلية للأساليب في عملين أدبيين ينتميان إلى بيئة جغرافية واحدة أو إلى بيئتين جغرافيتين مختلفتين. ويميز الباحث الدكتور سعد مصلوح هنا بين درجتين من التشكيل الأسلوبي؛

الأولى: التشكيل الأسلوبي بحسب محددات المقام يحكمها إطار العلاقة الجدلية بين الذاتي والموضوعي، وتتجلى في الممارسة اللغوية اليومية.

والثانية: تشكيل التشكيل في الأجناس الأدبية ولاسيما في الأنماط المركبة منها كالقصة والرواية والمسرحية.

إن الدراسة الحالية تعني بالتشكيل الأسلوبي الثاني الذي يسم عمل الشعراء والروائيين. ويتجلى هذا التشكيل في رواية «**مدن الملح**» للكاتب الروائي عبد الرحمن منيف [9]. فهذه الرواية تعكس تعددية الأساليب كنتيجة طبيعية لتعددية الأماكن الجغرافية. ويشعر القارئ لهذه الرواية وكأن الكاتب يبحث عن « تشكيل» يمثل جميع هذه الأساليب المختلفة والمتلونة والتي تناسب تلوّن مظهر سطح الأرض (Landscape) المعالج في الرواية.

إن رواية «**مدن الملح**» هي مشروع حقلي جغرافي تجريبي يسعى إلى رسم صورة مثلى للأسلوب منطلقًا من حضيض الأساليب الواقعية الجغرافية إلى قمة التشكيلات الأسلوبية المجردة التي ترحل بالإنسان من الحقيقة الجغرافية إلى خيال الأدبي المحلق.

وهذا يعني أن رواية «**مدن الملح**» هي تشكيل أسلوبي فني وجمالي مجرد يشبه المونتاج السينمائي الذي يجعل الواقع أكثر جمالاً وإنسجامًا بحيث يناسب الإنسان العربي أيًا كان موقعه في خارطة الجغرافية العربية.

---

9 ـ منيف، د. عبد الرحمان (2003 م) **مدن الملح**. المؤسسة العربية للدراسات والنشر، الطبعة العاشرة. بيروت ـ لبنان.

4 ـ من تقاطع المعارف إلى تقاطع الحضارات

بعد هذا العرض المتواضع لتقاطع المعارف البشرية بين **الجغرافيا والأدب** من وجهة نظر الباحثين الغربيين والتي عُرضت في كتاب : الجغرافيا والأدب، يمكن للمرء أن يتساءل: أين نحن من كل هذه التطورات العلمية الغربية التي أصبحت «موضة» يتلبسها الحداثيون العرب عندما يدرسون مفهوم **المكان** وقيمته في الأجناس الأدبية، الشعرية والروائية العربية مستشهدين بالباحثين الغربيين على صعيدي المادة الأدبية والمنهج العلمي؟!.

إن الحقيقة المفزعة التي يمكن للباحث النحرير والحصيف أن يستنبطها على نحو علمي ـ موضوعي ودون أي حماس عاطفي وبلاغي وتعصب قومي وديني تجاه تاريخه وهويته الحضارية، أن الحضارة الغربية الإسلامية العملاقة والرفيعة ماتزال تعاني من العقل العربي الحديث الذي لم يستطع، على المدى المنظور، أن يلامس إشعاعات الفكر في العقل العربي الإسلامي القديم. وهذه القضية تُعدّ في غاية الحساسية الفكرية بحيث يمكنها أن تؤدي إلى **انعطاف خطير** في تاريخ الفكر العربي، بحيث تبدو الصورة وكأننا أمام انهيار عربي حضاري يقودنا إلى صياغة تشكيل كيانات مجتمعية هزيلة تتفاعل، على نحو سريع، مع سياسة الاستهلاك الحضاري الوافد والغريب، ويبتعد بالتالي عن الركام المعرفي في الحضارة العربية الإسلامية، ذلك الركام الذي هو في جوهره مؤسس على سياسة الانتاج الحضاري.

وإلاّ مامعنى انحراف الباحثين والمفكرين العرب على اختلاف مشاربهم عما أسسه علماؤنا المسلمون المتقدمون حول مقاطع المعارف البشرية ليس في حقل الجغرافيا والأدب فحسب بل في حقول معرفيه أخرى أيضًا؟!

لقد كانت نظرة العلماء المسلمين في هذا الموضوع أشمل وأدق حين جعلوا الجغرافيا والتاريخ فرعين لعلم واحد أطلقوا عليه اسم **«علم الأدب»** كما هي الحال عند ياقوت الحموي في **«معجم البلدان»** حين أسمى الباحثين الذين يتعاملون مع الجغرافيا والتاريخ «طبقة أهل الأدب»؟!.

إن **المكان** بفضاءاته وتضاريسه المادية والإنسانية والموصوف على نحو تقني ممنهج وفي إطار فني وجمالي وخيالي، لا ترتقيه الآداب الأخرى، يتجلى بأدق تفاصيله وجزئياته في الشعر العربي القديم بمراحله المتعددة ولاسيما مرحلة الشعر الجاهلي الذي هو، في رأيي، أكثر فلسفة من التاريخ والجغرافيا. وهذا مادفع المحدِّث والصحابي ابن عباس رضي اللّه عنه لأن يقول، عندما كانت تواجه المسلمين مشكلة لغوية معينة في القرآن الكريم الذي هو رائعة الحضارة اللغوية العربية،:

«إذا تعاجم عليكم شيء في القرآن فعليكم بالشعر فإنه ديوان العرب».

النتيجة: أننا نحن العرب على اختلاف أديانا ومذاهبنا وعلى اختلاف توجهاتنا الإثنية والعرقية نبقى طلاب علم، نحتاج إلى دربة

وممارسة وإلى رواية ودراية لا لمعرفة **قراءة** التراث الإسلامي فحسب، بل لمعرفة كيفية **فهمه** أيضًا ثم وضعه في مكانه المناسب في خارطة التراثات الحضارية العالمية القديمة والحديثة وذلك من أجل تقاطع حضاري عالمي وشمولي يخدم الإنسان والإنسانية.

والله أعلم ،،